تعليم الأميين ووسائله

للأستاذ سلامه موسى

المفروض أن القراءة والكتابة هما الخطوة الأولى التى يجب أن يخطوها الصبى نحو الثقافة . وليس شك فى قيمتها . بل إن هذه القيمة لتزداد فى أيامنا أكثر مما كانت فى أى عصر مضى . فإن تعدد العلوم وتنوع المعارف ، والتطور الذى لاينقطع فيهما — كل هذا يجعل القارئ المثقف يشغل من المجتمع بل من الطبيعة أكثر مما يشغل الأمى . وحياته لهذا السبب أكثر حيوية ، ورؤيته ورؤياه معا أبعد وأعمق ، وفى حين ينظر الأمى الجاهل النظرة القروية لشئون العالم والمجتمع ينظر المتعلم القارئ الذى انتفع بقراءته وثقف نفسه النظرة العالمية لهذه الشئون . ولكن من العبث أن نستمر فى هذه الموازنة . وحسبنا أن نقنع منها برجلين : أحدهما يداوم على قراءة الجريدة ويتفهم أخبارها والآخر يجهلها لأنه يجهل القراءة .

ولكن يجب ألا نحد الثقافة بحدود القراءة . لأن الثقافة سبقت القراءة ، وهى أكبر منها وأعم . والثقافة هى فى الأصل مجموعة المعارف والعقائد والآراء والعادات التى تصل بين الفرد وبين المجتمع ، وبينه وبين الطبيعة . فللانسان البدائى ثقافة ، وقد عاش بها وتوارثها عشرات الألوف من السنين قبل أن يهتدى إلى الزراعة ويعرف الحضارة . فإن اختراع القراءة والكتابة لايرجع إلى أكثر من خمسة آلاف أو ستة آلاف سنة . ولكن الإنسان قبل ذلك كان يصيد الوحوش وينصب لها الفخاخ ويحت الحجر لكى يصنع منه الأسلحة . وكان يهتدى فى حياته ببعض العقائد ، ولعله كان يعرف النار أو الزراعة ويميز بين النبات المفيد وغيره . وكان يأوى إلى كهف أو يبنى بيتا بدائيا من الطين والقش ، أو يصنع آنية من الفخار . فعلم ذلك كله وعرف هذه المعارف جميعها وأكثر منها قبل أن يعرف القراءة والكتابة . وفلاحنا فى الوقت الحاضر يعرف عن الزراعة شيئا كثيرا توارثه بالتقاليد كما يعرف كذلك كثيرا من عقائده الدينية وأخلاق المجتمع الذى يعيش فى بيئته دون أن يعرف القراءة . فيجب لذلك أن نسلم بأن الثقافة قد سبقت القراءة والكتابة ، وأنها أكبر منهما وأعم ، والقراءة والكتابة هما وسيلة من وسائل الثقافة ولكنهما ليستا الوسيلة الوحيدة إليها .

ونحن فى عصرنا هذا نتزود من الثقافة بجملة وسائل . فإن الزائر لأحد المعارض الصناعية أو الزراعية لايحتاج إلى أن يكون قارئا لكى يفهم المعروضات ويستبصر بها . وكذلك الشأن

فى المتاحف أو فى كثير منها بل نحن لمحض كوننا نعيش فى مجتمع راق نرقى برقية ونكتسب عاداته ومعارفه التى نستبصر بها فى معايشنا وكسبنا وصحتنا وأخلاقنا وعقائدنا حتى ولو لم نقرأ. وإذا عمدنا إلى شاب فى السادسة عشرة من عمره قضى أكثر من نصفه فى المدرسة وامتحناه فى ثقافته لوجدنا أنه حصل من المجتمع الذى يعيش فيه على معظم ثقافته الاجتماعية والاقتصادية والفنية والأخلاقية والدينية . وأن القليل جدا من هذه الثقافة هو الذى حصل عليه من المدرسة عن سبيل القراءة . وليس هذا بالغريب إذا ذكرنا أن مثل هذا الشاب يتنقل فى مدينة كبيرة مثل القاهرة ويرى فيها آثارا مختلفة من الحضارة ، ويسمع كل يوم إذاعات الراديو ويختلف إلى الدور السينمائية ويشهد المواكب والاحتفالات الوطنية ويزور معارض المدينة ومتاحفها ويتحدث إلى سكانها .

ومثل هذه الحال يجب أن تدلنا على وسائل أخرى لنشر الثقافة غير وسيلة القراءة . ونكرر القول بأننا لانستصغر شأن القراءة . ولكن الأمة التى يبلغ الأميون فيها نحو ٧٠ أو ٨٠ فى المائة من سكانها لايجوز لنا أن تنتظر تعميم القراءة والكتابة لكى تثقف أبناءها بل يجب أن تبحث عن وسائل التثقيف الأخرى وأن تلجأ إليها .

وفى ظروفنا القائمة حيث تدهورت الصحة العامة حتى صار متوسط ما يحمله كل مصرى فى جسمه ثلاثة أمراض نحتاج إلى التثقيف الصحى بأسرع ما يمكننا ولايسعنا أن ننتظر تعميم القراءة كى نعمم الثقافة الصحية. وكذلك الشأن فى الثقافة الزراعية التى هى حرفة الشعب الأولى.

وأول وسائل التثقيف — بغير قراءة — هو محطة الإذاعة . فإننا يمكننا بإيجاد بضعة أجهزة للاستقبال فى القرى أن نثقف الفلاحين . فإن الراديو يمتع وينفع . فالفلاح يجذب إليه بالأغانى ويسمع فيما بين هذه الأغانى أحاديث طلية عن الصحة والزراعة والدين والأخلاق وأخبار العالم السياسية والاجتماعية، وهو يفهم جميع هذه الأحاديث إذا لم تكن مملة بطولها، غريبة عن أذنيه بلفتها . ومثل هذه الأحاديث يجب ألا تزيد على ربع ساعة بل يجب أن يكون منها الحديث الذى لايتجاوز خمس أو عشر دقائق يبسط فيها الموضوع بإيجاز لايخل وبلغة حية نضرة ليست هى اللغة العامية الصرفة ولكنها اللغة المبسطة التى يستطيع الفلاح أن يفهمها . ولا نقصد هنا مع ذلك إلى مقاطعة اللغة العامية إذ يجب أن نلجأ إليها إذا خشينا الفهم السيء .

ولا نستطيع أن نقول إن محطة الإذاعة تؤدى واجبها من هذه الناحية . فإن أحاديثها طويلة يحتاج الحديث فيها إلى عشرين دقيقة . وقد استغلتها الحكومة واستخدمت موظفيها غير المدربين على الإلقاء وترتيب الموضوع حتى صار الجمهور يكره الأحاديث . ولا بد من معالجة هذه الحال . فإن أطول مدة للحديث يجب ألا تزيد على ربع ساعة كما يجب اختيار المحدثين من المدربين الذين يستطيعون الشرح باللغة المبسطة .

ووسيلة أخرى للتثقيف من طريق غير طريق القراءة هو السينما توغراف، ولا تخلو عاصمة من عواصم العالم المتمدن بل لا تخلو مدينة من مدنه الكبرى من دار سينمائية ثقافية تختص بعرض الأفلام المفيدة المنيرة عن الصحة والنبات والحيوان والتاريخ والجغرافيا والصناعات وغيرها. ويمكن وزارة المعارف أن تؤسس دارا سينمائية ثقافية لسكان القاهرة. وهى قد اقتنت مئات الأفلام الثقافية التى تعيرها للمدارس. ولكن من حق الجمهور من العامة أن يستنير بهذه الأفلام. وإذا صحت التجربة الأولى فى القاهرة فإنه يمكن تعميمها فى سائر المدن. ولكن مثل هذه الدور سينتصر نفعها بالطبع على المدن. أما الريف فيحتاج إلى وسائل أخرى.

فقد قلنا إن محطة الإذاعة تستطيع أن تصل إلى الأميين فى الريف وتثقفهم بأحاديث قصيرة طلية عن مختلف شئونهم الصحية والزراعية والاجتماعية. ويمكن الحكومة أن تشرع فى إنفاذ هذه الخطة منذ الآن بأقل التكاليف، لأن كل ما تحتاج إليه هو شراء بضعة آلاف من أجهزة الاستقبال توزع على القرى. ولكن هناك وسيلة أخرى لتثقيف الفلاحين سبق أن حدثنا عنها المستر جون نيتيل مؤلف قصة "الدكتور ابراهيم" وهو قد اعتمد فى جمع معلوماته على أبحاث لمعاهد التربية فى سويسرا.

والأساس لهذه الوسيلة هو الأتومبيل. فانه يمكن أن نجعل منه متحفا متحركا يتنقل من قرية إلى أخرى ويحمل مئات النماذج لجسم الإنسان وأعضائه فى المرض والصحة. وللزراعة التى أهملت، والتى عنى بها من حيث الحرث أو التسميد أو اختيار البذور، مع ألوان من التربة. ومع الموكل بهذا الأتومبيل ميكروسكوب يرى به الفلاح ديدان البلهارسيا والأنكلستوما. كما يجب أن يكون به "فانوس سحرى" لتكبير الصور وإبرازها. وبالطبع لن يقتصر الشخص الموكل بالشرح على الصحة والزراعة، إذ يجب أن يكون حديثه طليا مختلفا، بحيث يستطيع أن يعرض عليهم صورة أحد السياسيين أو إحدى المدن كما تكون لديه مجموعة من الطيور النافعة ونماذج لتشريح الجاموسة إلى غير ذلك. وهو يجول فى الريف فيحط فى إحدى القرى نحو أسبوع يشرح فيها للأميين وللقارئين كثيرا من هذه المعارف التى تتصل بحياتهم القروية ومصالحهم الاقتصادية والصحية. ثم ينتقل إلى قرية أخرى.

وخلاصة القول أننا يجب أن ننشط لتثقيف الأميين، ولا ننتظر تعميم القراءة والكتابة بينهم. فإن محطة الإذاعة تستطيع أن تثقف الريفيين بأسلوب جذاب موجز، والعامة فى المدن يمكن أن ينتفعوا كثيرا بالتفرج فى دار سينمائية ثقافية. كما يمكن أن نستخدم المتحف المتنقل بين القرى.

سلامه موسى